وكان موته في مدينة الحصين التي عمرها تحت حصنه المتقدم، وله نظم فمنه ما قاله في أيام اعتقاله يرغب والده في الصلح بأبيات أولها: [من الكامل]

مَـوْلَاي إنَّ الـصُّـلْـحَ أعـذبُ مَـوْرِداً فَـاسْـلُـكْ لـه جَـدَداً سَـويّـاً أَجْـردَا[1]

وهي أبيات مشهورة.

وكان يلازم في أسفاره وجهاداته القراءة على الشيوخ، والمطالعة لكتب العلم. ولازم في آخر أيامه السيد مُحمَّد بن عِزّ الدين المفتي، فقرأ عليه في الأُصول وغيرها. وقد جمع إلى شجاعته الباهرة الكرم الفائض حتى كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. والحاصل أنه من أعظم سلاطين الجهاد وأساطين مصالح العباد.

(١٣٥)

(حَسَنُ بن مُحمَّد بن قَلاون الصَّالحي الملك النَّاصر بن النَّاصر بن المَنْصُور)[2]

ولد سنة ٧٣٥ خمسٍ وثلاثين وسبعمائة، وسمِّي أولاً قمارى، فلما جلس على التخت قال للنائب يا أبي ما اسمي قمارى، اسمي حَسَن، فقال: على خيرة اللَّه، واستقر اسمه حسناً، وولي السلطنة بعد أخيه المظفر سنة (٧٤٨)، وقبض على حاشية أخيه، وصُودروا لتخليص الأموال، فوجد لديهم من الجواهر ما قيمته مائة ألف دينار. فلما كان يوم السبت رابع عشر شوَّال سنة (٧٥١) قال الناصر لأهل المملكة: إن كنت سلطاناً فاقبضوا هذا، فأمسك وأرسل إلى الإسكندرية. ثم ما زال يقبض الأمراء واحداً بعد واحد، فنفروا منه وركبوا عليه في سابع عشر جمادى الآخرة سنة (٧٥٢) وخلعوه وقرَّروا أخاه الصَّالح، وأُعيد الناصر في شوّال سنة (٧٥٥) واستبد بالمملكة وصفا له الوقت، ولم يشاركه أحد في التدبير، فبالغ في أسباب الطمع، واستحوذ على إهلاك بيت المال، وأكثر من سفك الدماء، وشرع في عمارة المدرسة المعروفة بالرميلة، وليس لها نظير بالديار المصرية، ومات ولم تكمل. ثم عزم على قتل بعض أكابر أمرائه، فاستعد له وتقاتلا فكانت الدائرة على الناصر فانهزم، ثم أُمسك (وقتل) في تاسع جمادى الأولى سنة ٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة. وكان ذكياً مفرطاً، وله بعض اشتغال بالعلم.

---

(١) الجَدَدُ: الأرض المستوية.

(٢) ترجمته في: بدائع الزهور: ١/ ١٩٠؛ البداية والنهاية: ١٤/ ٢٨٨؛ الأعلام: ٢/ ٢١٦.